المدينة في الفكر الخلدوني

أ. باهي سلامي

أ. طلحة بشير

جامعة الأغواط

تمهيـــد :

تكاد تشكل الدراسات المقدمة حول الفكر الخلدوني عائقا ابستمولوجيا بالنسبة للباحث نظرا لتشعبها وكثرتها، مما يجعل الرجوع للمصادر الأساسية للفكر الخلدوني أمرا لا مفر منه بالنسبة لمن أراد أن يقدم الجديد، كما أن المشكل الذي يواجه الباحث في فهم الفكر الخلدوني واستجلاء ما خفي منه لا يرجع للفكر في حد ذاته بقدر ما يرجع لهذا الكم الهائل من الدراسات والقراءات التي قدمت حوله، لذلك فقد عمل بعض المهتمين على تصنيف هذه القراءات حسب موقعها وموقفها من الرجل وفكره.

كما يظهر جليا للباحث من خلال هذه القراءات مدى تأثير التخصصات العلمية على مناحي البحث في الفكر الخلدوني، فكل واحد يتطرق له من خلال تخصصه، ولكن رغم هذه المساهمات المتخصصة إلا أنها أغفلت التطرق للكثير من الأمور والوصول إلى بعض الجوانب المهمة، والتي من بينها التطرق لمفهوم المدينة التي أوضحها خاصة في الفصل الرابع من المقدمة وبين كل ما يتعلق بها من ظواهر حضرية مصاحبة، لذلك فهذه المداخلة نقدم ولأول مرة التصور الخلدوني لمفهوم المدينة (نشأتها وأصنافها والظواهر الحضرية المصاحبة لها)، وهذا من خلال العناصر التالية:

1 ـ المدينة في الفكر الخلدوني :

إن المقارنة بين آراء ابن خلدون في مجال التحضر والمدينة بأفكار رواد العلم الغربيين يفضي إلى التحامل على فكر الرجل وتحميله فوق طاقته، ولا يرجع السبب للفكر الخلدوني بقدر ما يرجع إلى تطور مفهوم المدينة بحكم التغير الذي طالها .

ففي القديم كان يسهل تحديد المدينة نظرا للتعارض بين مجال المدينة والريف " فكانت عبارة عن قلعة محمية بأسوارها ومتميزة بشكل واضح عن الأراضي المنبسطة المجاورة لها "[1] .

إن الطرح الحالي قدم بدائل مست المستوى المفاهيمي فلم تعد المدينة تعبيرا حقيقيا عن مرحلة التحضر الكبيرة والسريعة في نفس الوقت بفعل الثورة الصناعية والتكنولوجية التي شهدتها المدن .

لذلك طرح مفهوم بديل سمي "بالظاهرة الحضرية"، بل أدى إلى اعتبار المدينة كنسق عند قاريني إن هذا التطور لم يطل مدن القرون الوسطي التي عاصرها ابن خلدون، لذلك فمهما ورد من تعاريف حول المدن فانه لا يضاهي مدن القرن الواحد والعشرين الحالية، لا من ناحية المصطلح ولا من ناحية التكوين .

فاصطلاحا ناقش العرب والمسلمون مفهوم المدينة ولم يستعملوا في تعابيرهم كلمة واحدة للدلالة على الظواهر الحضرية " بل استعملوا مجموعة من الكلمات كالمصر والقصبة والحاضرة والبلدة والحوز وكورة وقرية وعمل ومدر بالإضافة إلى لفظ المدينة كما أنهم استعملوا لما يحيط بالمدينة كلمة ريف وضيعة والربض والضاحية والغوطة "[2] وقد اختلف في استعمالها كل حسب تخصصه انطلاقا من الفقيه والمؤرخ وصولا للجغرافي، بحيث تتضارب الآراء حول مفهوم المدينة وتحديداتها، وإذا كان بعض المؤرخين والجغرافيين قد وجدوا تحديدا لهذه المصطلحات فان ابن خلدون " لم يفرق بين مصطلحات المدن والأمصار والقصبات

...فهو يتكلم عنها جميعا تحت اسم الأمصار "[3]، ولكنه يضع تحديدا لمفهوم المدينة حيث يعرفها بأنها " قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار "[4] .

إن العامل السياسي والنفسي واضح في تعريف ابن خلدون للمدن باعتبار أنها ناتجة عن قرار سياسي تتخذه الدولة عندما تسعى إلى تلبية حاجات ورغبات ما فوق الضروري من حياتها أو بعد حصول الملك والتنعم به، كما تعتبر المدينة مكان للاستقرار النفسي والبحث عن الراحة والسكون بعدما كانت حياتهم توصف بالتنقل والترحال وعدم الاستقرار .

إن المتتبع لفصول مقدمة ابن خلدون يلحظ أن تعريفه للمدينة لا يقف عند هذا الحد بل يتعداه إلى اعتبار المدينة ليس حيزا مكانيا بل ظاهرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية في نفس الوقت بل وحضارية أيضا وهذا من خلال الفصول التي ركز فيها على الفروقات الموجودة بين البدو والحضر وتطرق فيها لجميع المظاهر المتضمنة في المدينة، ويمكن إجمالا تحديد المعايير الواجب توفرها في المدينة لدى ابن خلدون وهذا بتتبع جميع فصول المقدمة، والتي أمكن تلخيصها في ما يلي :

- وجود سلطة بجميع أجهزتها
- الصنائع (الصناعة)
- حركة تجارية (دخل وخرج)، وتتجسد هذه الحركة في السوق الذي يعتبر عنصر مهم في المدينة .
- الأسوار
- العامل الديمغرافي والمتمثل في وجود البادية والقبائل بمحاذاة المدينة والتي تعتبر مادة للمدينة تمدها بها .

- نمط الحياة (الاستقرار، الاهتمام بالكمالي إضافة للضروري والحاجي) .
- الحمامات
- شكل البناء ومواده (حجر، جير، التنميق والزخرفة) .

عند مقارنة هذه المعايير بالمعايير المقدمة من طرف العالمين الألمانيين "اشلي" "وفيبر" نجد بأنها أكثر شمولا منهما، بحيث شملت جميع المظاهر الحضرية المتواجدة بالمدينة ابتداء من السلطة والمرافق وانتهاء بالهندسة وطريقة البناء، ويمكننا عرض كلا الرأيين لتسهيل المقارنة .

* المعايير المقدمة من طرف اشلي : [5]

- توفر الأمن والاستقرار وهيمنة السلطة السياسية
- وجود حصن
- وجود قانون يشمل برعايته المصلحة العامة

* المعايير المقدمة من طرف ماكس فيبر [6]

- حصن أو أسوار
- أن يتوفر فيه سوق
- أن توجد فيه محكمة أو قضاء وتشريع يتمتع بقانون مستقل
- وجود نقابة أو شكل من التعاون النقابي
- إن يتمتع ذلك المكان بحكم ذاتي مركزي يستند إلى مبدأ الانتخاب

2ـ نشأة المـــدن :

تتعدد أسباب وظروف نشأة المدن بين دينية وتجارية وحربية وسياسية وصناعية وقد أجملها قاريني في ثلاثة أسباب (اقتصادية وسياسية ودفاعية) وهذه الأخيرة تعد مظهرا ثانويا للسياسي، أما ابن خلدون فانه يرجع أسباب نشأة المدن

إلى العامل السياسي وتحديدا الدولة التي تسعي إلى تأسيس المدن " فلابد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك " [7].

وبما أن اتخاذ المدن ليست من الأمور الضرورية للناس، فلابد أن يلجأ السلطان أو الملك إلى عمليتي الترغيب والترهيب في بنائها فان لم يكن عن طريق الاضطهاد والأمر يكون عن طريق الترغيب في الثواب والأجر، كما أن القبائل إذا حصل لهم الملك، اضطروا للاستيلاء على الأمصار وهذا لتوطيد الملك واستكمال ما كان ناقصا من أمور العمران البدوي .

والأمر الثاني هو دفاعي " دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين المشاغبين " [8]، وهنا يتكلم عن المدينة العاصمة التي تمثل مركز الملك فإذا وقع العدوان على المدينة واستولي عليها يسقط الملك بسقوطها فهي من جهة لها قيمة رمزية ومن جهة أخرى لها دور مادي تقوم به للدفاع عن الملك، وهذا لما فيها من " الامتناع ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير كثير عدد ولا عظيم شوكة " [9]، فالسور يقوم مقام الجند وكذا الموقع المتمنع للمدينة، أين يصعب على الأعداء الوصول إليها إلا " بصعوبة ومشقة " [10] .

3 ـ أصناف المدن :

لا يعتبر ابن خلدون المدن على حالة واحدة فهو كثيرا ما يقرن المدينة بالملك ويتحدث عنها بأنها نتيجة سيرورة آلية تفضي في الأخير إلى الاستقرار والدعة داخل المدن انطلاقا من العمران البدوي الذي تكون غايته التحضر " فالملك والدولة غاية للعصبية وان الحضارة غاية للبداوة " [11]، ومن خلال استقراءه للواقع الذي عاينه استطاع أن يصنف المدن إلى ثلاثة أنواع .

1.3 ـ المدن البدوية :

وهي التي يغلب عليها طابع البداوة ويمكن تميزها عن المدن الأخرى بعدة معايير أهمها :

من ناحية الشكل :

أدوات البناء " فالمدن العامرة تكثر فيها المباني المشيدة بالحجر والجيـر والمنمقـة بشتي أساليب التنميق فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها وقلت الصنائع كـان مـن جملة ذلك عدم الإجادة في البناء واستخدام الطوب بدلا من الحجارة، والقصور عـن التنميق "[12]، " فيعود بناء المدينة مثل بناء القرية والمدر وتظهر عليهـا سـيماء البداوة "[13] .

كما أن البدوي لا يستطيع الإقامة في المدن الكبيرة فهو يلجأ للإقامـة فـي المدن الصغيرة المجاورة للبادية والتي يتردد عليها من حين إلى أخر لقضاء حاجاته، وهي لا تتوفر فيها شروط التحضر أو الحضارة كاملة، بـل أن مجاورتهـا للباديـة وتوافد البدو عليها باستمرار يجعلها ذات طابع بدوي .

" ولهذا نجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبتعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة فـي الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها "[14] .

تواجد الحمامات التي تنفرد بها المدن الكبيرة بخلاف المدن المتوسطة " لأنها توجد في الأمصار المستحضرة المستبحرة في العمران لما يدعو إليه الترف والغنـي من التنعم ولذلك لا تكون في المدن المتوسـطة، وان نـزع إليهـا بعـض الملـوك والرؤساء "[15]، وهذا مستبعد في المدن الصغيرة أو ما اصطلح على تسميته بالمدن البدوية .

إضافة إلى اختصاص المدن الكبيرة بالصنائع وفقدان المدن الـصغيرة لهـا " كالزجاج والدهان والطباخ والصفار والفراش والذباح فإنما توجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة "[16].

ويمكن التمييز بين المدن الصغيرة والكبيرة من ناحيـة الحركـة التجاريـة وتواجد الأسواق بها وكثرة خرجها ودخلها، والتي تكون بـدورها نتيجـة الأعمـال

الزائدة على كل ما هو ضروري " فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فتكثر مكاسبهم ودعتهم أحوال الرفه والغني إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم ...وهذه كلها أعمال تستدعي بقيمها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتنفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ...ومتي زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب " [17] .

فالأمصار تتفاوت بتفاوت الأعمال بها وما نتج عنها من الكسب حتى أن الأمصار التي لا توفي أعمالها لا تعد أمصارا وإنما هي من قبيل القري والمدر،" فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضروراتهم ولا يفضل ما يتأثلونه كسبا فلا تنمو مكاسبهم وهم لذلك مساكين ومحاويج إلا في الأقل النادر " [18].

2.3 ـ المدن المتوسطة :

جاء ذكر المدن المتوسطة في المقدمة حوالي مرتين، في الموضع الأول في صدد حديثه عن تواجد الحمامات بالمدن الكبيرة المستبحرة في العمران ويجعلها خاصية تنفرد بها عن غيرها من المدن، وفي الموضع الثاني يوضح العلاقة بينها وبين مركز الدولة أو المدن التي تمثل العاصمة ويشبهها بالأرض التي يصلها الماء فينحصر ما قرب منه وهكذا .

كلما كانت المدن قريبة من مركز الدولة استطاعت أن تستفيد من خيراتها وعطياها وكلما بعدت قلت الاستفادة " فالأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وما ذاك إلى لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم كالماء يخضر ما قرب منه، فما قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد " [19] .

ويمكن تمثيل ذلك بنموذج توضيحي كالتالي :

الشكل رقم : (01) شكل توضيحي يمثل علاقة الدولة المركزية بالمدن

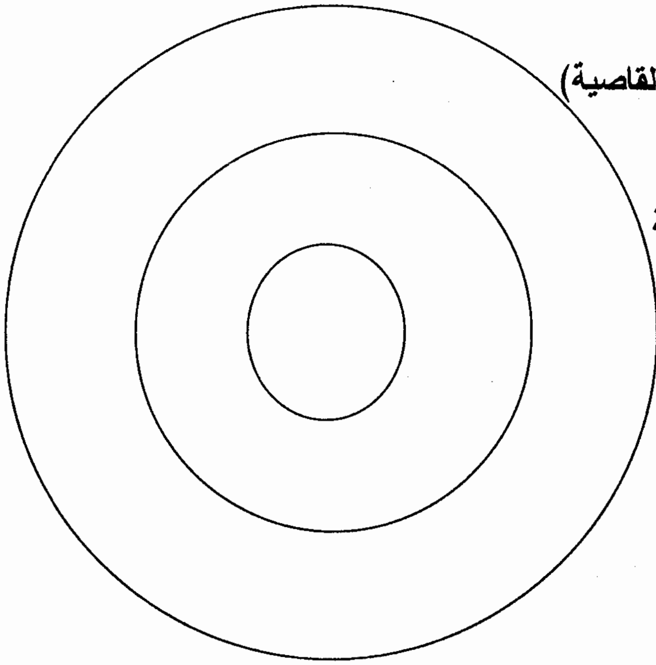

3.3 ـ **المدينة الدولة (العاصمــة)** :

كثيرا ما أشار ابن خلدون في صدد حديثه عن المدن إلى المــدن المركزيــة (العاصمة) التي تمثل الدولة من خلال ربطه بين المدينة والحصول علــى الملــك، فللوصول إلى حالة التمدن واتخاذ المدن مراكز للحكم كان الانتقال إليها يتم بإحــدى الطريقتين :

الأولى : تكون بالتدرج وهي الانتقال من حالة البداوة إلى حالــة التحــضر، وتأخذ وقتا طويلا في اكتساب صفات الحضر الذين في الغالب يكونون علــى مقربــة

منهم، فالاستقرار ووجود فائض من الإنتاج يزيد على الضروري من القوت يجعل حياتهم تتجه نحو الدعة والترف في جميع مناحي الحياة، وبالتالي اتخاذهم المدن وتشيدهم المباني التي هي من منازع الحضارة .

الثانية : يتم الحصول على الملك عن طريق القوة والغزو، بأن تسيطر قبائل البدو بما أوتيت من صفات جسدية ونفسية تأهلها بالاستيلاء على الحواضر المنغمسة في الدعة والترف وتتخذها مقرا لها، أو تسعى إلى تشيد مدن جديدة تكون مركزا للحكم كما حدث ذلك في دولة الملثمين وتشيدهم لمدينة مراكش التي اتخذوها عاصمة لهم .

ولكن سرعان ما تكون هذه المدن عرضة للانهيار والخراب لأنه لم يراع في تشيدها القواعد الواجب مراعاتها عند تخطيط المدن وهذا راجع لعدم دراية البدو بهذه الخطط ومستلزمات البناء لتوغلهم في البادية .

لذلك فالمدينة قائمة بقيام ملكهم وتنهار بانهياره " إذا بنيت المدينة وكمل تشيدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها، فعمر الدولة حينئذ عمر لها، فان كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وان كان أمد الدولة طويلا ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة "[20] .

إن استقرار سلطان الدولة داخل المدينة يفضي إلى وصول المدينة إلى حالة متطورة، فتصبح المدينة الدولة مدينة حضارة وهذا بعدما تستحكم فيها عوائد الحضارة " ويتعاقب عليها الملوك واحدا واحدا وتستحكم الحضارة فيهم وتزيد رسوخا " [21]، وتصل المدينة إلى هذه الحالة بعدما تكون قد انغمست في الترف " ووصلت إلى الكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر متونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الأبنية أو سائر أحوال المنزل " [22]، وتكون هذه بدورها إذانا

بوصول المدينة إلى منتهاها وإذانا بخرابها وخراب ملكها "فالأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها " [23] .

وهكذا تصل المدينة إلى نقطة الصفر ضمن حلقة دائرية تمثل فيها نقطة النهاية بداية لنهاية أخري .

4 ـ تخطيط المـدن :

لقد قعد ابن خلدون لعملية تخطيط وإنشاء المدن بقاعدة ثابتة قد تصلح لأزمنة بعده، استقاها من العلوم الإسلامية، تمثلت في انه عند اختطاط المدن يجب مراعاة أمرين هامين هما دفع المضار وجلب المنافع، وان كان قد بين ما يتضمنه هذين العنصرين إلى انه قد يضمان في طياتهما كل ما من شأنه أن يعود بالضرر على المدينة عند اتخاذها ويجب تلافيه وكل ما من شأنه أن يعود بالفائدة والإيجاب على المدينة فيراعيه ويمكن تلخيص ما ذكره تحت هذين العنصرين فيما يلي :

- الحماية من المضار :
- اتخاذ الأسوار : فيجب أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار
- أن يكون وضع المدينة في ممتنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو .
- مما يجب مراعاته أيضا طيب الهواء للسلامة من الأعراض والحماية من الآفات السماوية .
- جلب المنافع والمرافق :
- الماء : كأن يكون البلد على نهر أو عيون عذبة فان الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية .
- خصب المراعي لسائمتهم : فإذا كان المرعي قريبا طيبا كان ذلك ارفق بحالهم

- المزارع : فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه واقرب في تحصيله ومن ذلك الشجر للحطب والبناء .
- قربها من البحر بالنسبة للمدن الساحلية : وهذا لتسهيل الحاجات القاصية في البلاد النائية .
- ومما يراعي أيضا في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون بين امة من الأمم وفورة العدد تكون صريخا للمدينة متي طرقها طارق من العدو والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصائب ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة البيان وسهل طرقها في الأساطيل البحرية على عدوها .

5 ـ **ظاهرة التحضر في الفكر الخلدوني** :

وردت الكثير من المصطلحات الخاصة بالتحضر والحضرية في المقدمة، مما قد يوحي للقارئ انه أمام احد أعلام علم الاجتماع الحضري بالمعني الحقيقي للكلمة، وهذا من خلال ما أثاره حول هذه الظاهرة بل لقد استعمل ابن خلدون مرادفات لكلمة تحضر كالتمدن والمدنية، وعليه فهو يرى أن عملية التحضر تتم بطريقتين :

الأولى :

تعتمد على سكان البادية الذين ينتحلون الزراعة والفلاحة وهم الفئة الثالثة في تصنيفه للبدو وهم بعيدين عن البدو الاقحاح الذين ينتشرون في القفار والصحاري الخالية، بل هم اقرب ما يكون للحضر نظرا للعلاقة التي تربطهم بهم سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية .

يتجمع هؤلاء مكونيين تجمعات سكانية دفاعا عن أنفسهم من غزوات العدو وإمام هذا الوضع " يجدون أنفسهم فيما بعد مرغمين على بناء أسوار تصوون مساكنهم "[24]، مشكلين بذلك مدينة صغيرة " وبالتدرج فان هؤلاء الأفراد بازدياد وتحسين أدوات العمل يشيدون مدينة حقيقية "[25].

" فمتي حصل على الرياش (أي البدوي) الذي يحصل لــه بــأحوال التــرف وعوائده علج إلى الدعة وأمكن نفسه إلى قيادة المدينة " [26]، ولكن هذا النــوع مــن التحضر الذي يسعى إليه البدوي القريب من الحضر بحكم استقراره النسبي والتواق إلى العيش مثله قد لا تتاح له الفرصة في ذلك نظرا لأنه في بعض الأحيــان يكــون تحت سيطرة الحضر من الناحية الاقتصادية والسياسية، فهم مغلوبون لأهل الأمصار كما اسماهم ابن خلدون، هذه المرحلة الانتقالية بين البادية والحضر تعد رغــم ذلــك ضرورية في التدرج الطبيعي للمجتمعات في اكتسابها لصفات والــسلوك الحــضرية، بخلاف الانتقال المباشر من المرحلة البدائية إلى الحضرية كما سنري ذلك.

الثانيــة :

وهي تعتمد على الانتقال المباشر للبدو الاقحاح الذين يعيشون في الصحاري والقفار وتطبع حياتهم الترحال والتنقل، فليس لهم وطن ينتمون إليه وهم يعيشون في شذف من العيش، هذه الأحوال المعيشية قد جعلتهم يتسمون بصفات جسدية ونفسية مخالفة للحضر، وأكسبتهم شجاعة وقوة زاد من صلابتها رابطة الدم (العصبية) .

لذلك سرعان ما تنهار أمامهم الدول والأمم المنغمسة في رقــة الحــضارة وترفها، ويعجزون عن الدفاع عن مدنهم وتكون لقمة صائغة أمامهم يعيثــون فيهــا خرابا ونهبا، وان قدر لهم واخذوا بزمام أمور الدولة فانه يلزمهم ذلك جيلين من اجل اكتساب صفات الحضر وسلوكهم .

أما إذا أسسوا مدينة خاصة بهم سرعان ما يحل بها الخــراب نظــرا لعــدم مراعاتهم لقواعد تخطيط المدن والشروط الواجب مراعاتهــا، إن هــذا النــوع مــن التحضر يقفز على النمو التدريجي لعملية التمدن التي كانت تحــدث خــلال ســنوات عديدة، فهو ينتقل بسرعة فائقة من خشونة البدواة إلى رقة الحــضارة وبــذلك لا محالة أن تكون له عواقب على تأسيس المدن والدول وبناء الحضارات .

إن هذه الأسباب قد أفضت بابن خلدون إلى القيام بعملية المقارنة بين الأمم والحضارات للنظر في ظاهرة التمدن واختلافها من مكان لآخر، فخلص إلى إن ظاهرة التمدن في إفريقيا والمغرب قليلة بسب أن عمرانها كان بدويا، ولم تساهم في القضاء على هذه الظاهرة والتخفيف منها حتى الحضارات والدول التي غزتها، لأنه لم يطل ملكهم فيها حتى ترسخ الحضارة .

أما السبب الثاني فهو قلة الصنائع فهي بعيدة عن البربر لأنهم اعرق في البداوة والصنائع من توابع الحضارة ويكاد يشترك في هذه كل من العرب والبربر، إننا هنا نقف مرة أخرى أمام أسبقية الفكر الخلدوني في دراسة الظواهر الحضرية وفق منهج المقارنة نظرا لما لهذا المنهج من أهمية في دراسة تاريخ الإقامة الحضرية وتاريخ المدن " ابن أعطى الدراسات الحضرية بعدا جديدا أو منظورا أوسع " [27] .

6 ـ **عصبية المدن** :

إن ديناميكية الانتقال من البادية إلى الحضرية في الفكر الخلدوني لا يتم إلا بالعصبية، فهي المحرك الأساسي لهذا الحراك الاجتماعي العمودي والتي تسعى من خلاله المجتمعات البدوية للحصول على الملك والحكم، فهو غايتها ومبتغاها .

ولكن ما مصير هذا العامل أو هذه الرابطة عند الحصول على غايتها ؟ هل تضمحل وتتلاشي ؟ أم تواصل أداء وظيفتها ؟ التي كانت تقوم بها في المجتمعات البدوية والمتمثلة في الدفاع عن القبيلة من الاعتداءات الخارجية " فحللهم إنما يذود منها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد " [28]، فهي تقوم بالوظيفة التي تقوم بها الأسوار بالنسبة للمدن .

في حديثه عن النسب تحت عنوان "إن النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم " [29]، يقرر أن النسب في المجتمعات البدوية أوضح بخلاف المجتمعات الحضرية التي يضمحل فيها ويتلاش .

كلما انتقلنا من البادية كانت أنسابهم أوضح وبعيدة عن الاختلاط وفسادها "فلا تزال فيهم محفوظة صريحة " [30]، ومع انتقالهم إلى الحضر واختلاطهم بالعجم والأمم الأخرى فانه يؤدي إلى فساد الأنساب وفقدان العصبية " ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الأنساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فأطرحت ثم تلاشت القبائل ودثرت فدثرت العصبية بدثورها، وبقي ذلك في البدو كما كان " [31].

إن اختلاط الأنساب وفسادها يؤدي إلى تلاشي العصبية، فالعصبية هي " ثمرت النسب " أي أنها ليست نتيجة النسب في حد ذاته بل " الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة " [32] فالعصبية في المفهوم الخلدوني ليست نتيجة النسب وإنما نتيجة " الالتحام الحاصل بسببه " [33]، وبزوال هذا الالتحام أو ثمرة النسب تزول العصبية وتتلاشي القبائل بتلاشي العصبية التي تربط أفراد القبيلة بعضهم ببعض.

كما أن الانتساب إلى المدن والقرى كان يعتبر نقيصة لدى المسلمين والعرب، لذلك فقد دعا إلى تعلم الأنساب وحفظها حتى انه اختص بها بعضهم وأصبحت علما يتداوله الناس، وهذا استنادا لحديث عمر ابن الخطاب الذي ذكره ابن خلدون، قال عمر رضي الله عنه " تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل احدهم عن أصله قال من قرية كذا " [34].

فالبدوي أو ساكن المدينة من أصول بدوية يرفض انتسابه إلى المدينة أو القرية أو الحي الذي يسكن فيه، ويعتبره نقيصة في شخصيته، لذلك فهو يحرص كل الحرص على نسبته لقبيلته وتعداد أجداده والافتخار بذلك .

إن العصبية تتلاشي بتلاشي القبائل الحاملة لها، والمتمثلة أساسا في الالتحام والمناصرة والنعرة داخل المدينة، ولكن " الالتحام موجود في طباع البشر وان لم يكونوا أهل نسب واحد "[35]، فالإنسان اجتماعي بطبعه، لذلك فإننا نجد التحاما واتصالا آخر داخل المدينة غير ناتج عن النسب ويكون اضعف من الالتحام الذي يوجد في البادية ورغم ذلك فانه ينتج عصبية تكون ميزة أهل الأمصار والمدن.

هذه العصبية يكون أساسها عملية المصاهرة التي تقع بين سكان أهل المدن " فأهل الأمصار كثير منهم ملتحمن بالصهر يجذب بعضهم بعضا إلى أن يكونوا لحما لحما وقرابة قرابة وتجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترقون شيعا وعصائب "[36] .

هناك عصبية مماثلة لعصبية القبيلة ولكنها ناتجة عن الزواج وعلاقات المصاهرة حتى تكون رابطة أشبه ما تكون بروابط القبائل، وبذلك تنشأ بينهم عدوات وصدقات مثل ماهو موجود لدى القبائل، وتكثر هذه المنازعات بذهاب هيبة الدولة وظلها في مراحل هرمها وزوالها، وخاصة في المدن القواصي وبالتالي يلجأ أهلها إلى الشورى في تسيير شؤون أمورهم وينقسمون بذلك إلى فريقين أو طبقتين بتعبير ابن خلدون "العلية " الطبقة العليا "السفلة " أي الطبقة السفلي، والطبقة العليا تكون للمشيخة وخاصة المقتدرين منهم مكونين بذلك عصابات وأحلاف باذلين المال الوفير من اجل استمالة الطبقة الدنيا من المجتمع .

ويستأثر في الأخير منهم الذي له الغلبة عليهم ويصبح سيدا عليهم وعلى مدينتهم " فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنفوس بطباعها متطاولة إلى الغلب والرئاسة فتطمح المشيخة لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة إلى الاستبداد وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالأتباع والموالي والشيع والأحلاف، ويبذلون ما في أيديهم للأوغاد

والاوشاب فيعصوصب كل لصاحبه ويتعين الغلب لبعضهم فيعطف على اكفائه ليقص من أعنتهم ويتتبعهم بالقتل أو التغريب حتى يخضد منهم الـشوكات النافـذة ويقلـم الأظفار الخادشة ويستبد بمصره اجمع " [37].

إن وصول الدولة إلى مرحلة الهرم وتقلص سلطانها، يـؤدي إلـى تقلـص الشعور القومي الذي كانت تنطوي تحته كل الفئات والشرائح وبزاوله تظهر التمردات والدعاوى العصبية التي تساهم في التعجيل بسقوط الدولة واندثارها وقيام دول أخرى مكانها .

الخاتمـة:

إذا جاز لبعض الدارسين للفكر الخلدوني إن يصرح بأن هناك تناقض وعـدم انسجام في فصول المقدمة وخاصة علاقة الفصول الأولى بالأخيرة وعدم وجـود أي رابط بينها، فان الجابري يؤكد في ما معناه من خلال كتابه (العصبية والدولة)، بان أصحاب هذا الرأي لم يسعفهم الحظ في سبر أغوار الفكر الخلدوني ونظروا إليه نظرة تجزيئية أضرت به دون أن تخدمه، فالمقدمة دائما في نظر الجابري عبارة عن هرم متماسك البناء ولعل هذه الخاصية هي التي جعلت الكثير يعجز عن تقديم تـصورات صحيحة عن بعض الظواهر التي تناولها ابن خلدون بما فيها تصوره عن المدينــة، فلفهم المدينة واستخلاص تعريفات لها وجب البحث في جميع فصول وأجزاء المقدمة ومنه الخروج بتعريف جامع ومانع لها ،وهذا نظرا لأنها تشكل جزءا لا يتجزأ مـن المنظومة العمرانية التي تصورها ابن خلدون، وكانـت بـدايتها العمـران البـدوي ونهايتها العمران الحضري وكذا علاقتها بالدولة واهم المراحل التي تمر بها .

هذا التصور الذي يخص بالدرجة الأولى مدن وحواضر المغرب العربي خلال هذه الحقبة اثبت فيما بعد شموليته وصحة تحليلاته حتى القرون الأخيرة وهذا مـن خلال المقارنة مع بعض رواد الفكر الغربيين الذين تطرقوا لأهم مميزات وخـصائص

المدينة منطلقين في ذلك من واقع مدن القرن الثامن عشر والتاسع عشر الأوروبية مما يعطي مرة أخرى السبق للفكر الخلدوني في معالجة الكثير من القضايا العلمية.

قائمة المراجع :

1 - جاكلين بوجو قاريني، الجغرافية الحضرية، ترجمة : عبد القادر حليمي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989 .

2 - طارق دالي، النظرية العمرانية في العبر الخلدونية، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، البحرين، 1995 .

3 - محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون. العصبية والدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992 .

4 - عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند بن خلدون، ترجمة : محمد شريف دالي حسين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986 .

5 - عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية والإسلامية، مطبعة البصرة، بغداد، 1986

6 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ .

7 - عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ .

الهوامش:

1 جاكلين بوجو قاريني، الجغرافية الحضرية، ترجمة : عبد القادر حليمي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ص : 10 .

2 طارق دالي، النظرية العمرانية في العبر الخلدونية، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، البحرين، 1995، ص : 291 .

3 نفس المرجع، ص : 291 .

4 عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، ص : 384 .
5 عبد الجبار ناجي، دراسات في تاريخ المدن العربية والإسلامية، مطبعة البصرة، بغداد، 1986، ص : 15 .
6 نفس المرجع، ص : 16 .
7 عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص : 379 .
8 نفس المرجع، ص : 380 .
9 نفس المرجع، ص : 381 .
10 نفس المرجع، ص : 381 .
11 نفس المرجع، ص : 411 .
12 طارق دالي، مرجع سابق، ص : 298 .
13 عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص : 398 .
14 محمد عابد الجابري، فكر بن خلدون . العصبية والدولة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992، ص : 52 .
15 عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص : 418 .
16 نفس المرجع، ص : 417 .
17 نفس المرجع، ص : 399 .
18 نفس المرجع، ص : 400 .
19 نفس المرجع، ص : 409 .
20 نفس المرجع، ص : 379 .
21 نفس المرجع، ص : 409 .
22 نفس المرجع، ص : 412 .
23 نفس المرجع، ص : 415 .
24 عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة : محمد شريف دالي حسين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص : 132 .
25 نفس المرجع، ص : 133 .
26 عبد الرحمن بن خلدون، مرجع سابق، ص : 135 .
27 عاطف غيث، علم الاجتماع الحضري، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ، ص:11.

28 نفس المرجع، ص : 141 .

29 نفس المرجع، ص : 142 .

30 نفس المرجع، ص : 143 .

31 نفس المرجع، ص : 143 .

32 نفس المرجع، ص : 171 .

33 نفس المرجع، ص : 171 .

34 نفس المرجع، ص : 143 .

35 نفس المرجع، ص : 418 .

36 نفس المرجع، ص : 418 .

37 نفس المرجع، ص : 418 .